تقديم كتاب الأستاذ محمد المكحلي

يركز كتاب الأستاذ المكحلي على دراسة ظاهرتين اجتماعيتين و ثقافيتيين بصمتا التاريخ الاجتماعي و الثقافي للمنطقة المغاربية منذ زمن طويل و على امتداد الفترة العثمانية ,هما "الطريقة"و"القبيلة". و وفق دراسته للمجال فرك الباحث هذين المكونين الذين طبعا و لا يزالان الحياة الاجتماعية و الثقافية و السياسية لمجتمعات المنطقة و في المناطق الداخلية و الريفية على وجه الخصوص . كما كانت المفاهيم الثنائية :المجال و البيئة , و الصراع و الاندماج , و الانصهار و الانشطار, و الهامشية و المركزية, و غيرها من المفاهيم السوسيولوجية , خير معين للكاتب على فهم الظواهر و تفرعاتها و تحليل الإشكاليات و امتداداتها.

فثمة حسب المؤلف علاقة وشيجة ما بين الظاهرة الروحية {الطريقة - الزاوية} و الظاهرة الاجتماعية {القبيلة - العشيرة} و ثمة أيضا تفاعلات عميقة لا نستطيع إهمالها قي تحليلنا لأية حركة أو ظاهرة سياسية و ثقافية تاريخية بالمنطقة . إذ لقوة حضور هذه المكونات شواهد عديدة لطالما طبعت التاريخ الاجتماعي للجزائر المعاصرة و هو ما يشكل أحد مكونات الهوية و الذات في ظل محاولات الاحتلال الأولى في علاقة بالاستقلالية النسبية للجهات الداخلية و بالسلطة المركزية من جهة و في علاقتها بالمجال المحلي الذي لم يكن البتة مجرد فضاء جغرافي منفعل بل كان على مر التاريخ فاعلا و مشاركا في التفاعل مع مكونات الهوية الوطنية و الحضارية للجزائر من جهة ثانية. و هو حال متشابه في المغرب الأوسط مع ما حصل بالمغرب الأدنى و بالمغرب الأقصى " على نسبته و مقدار عمرانه " –حسب عبارة العلامة ابن خلدون-.

لقد توغل الكاتب وساح كما في سياحة شيوخ الزوايا و الطرق وتنقلات القبائل و ثوراتها في الأطراف بكل المعاني البحثية : في دراسة المجال وفي العلاقة الجدلية بين السلطة المركزية و السلطة المحلية , كان توغلا محكوما بمدى قدرته

على توظيف المادة التاريخية الدراسية و الوثائقية المتوفرة و المتعلقة بالثلاثة قرون الماضية , و في مراوحته بين المرجعيات التاريخية الوسيطة المتنوعة و المرجعيات السوسيولوجية و الأنتربولوجية الحديثة التي استفاد من مناهجها و مقارباتها .

كما بين المؤلف أن هذه العلاقة بين المتحكمين في المجال كانت مبنية على التنافس و الهيمنة و على احتكار النفوذ في فضاء شاسع متنوع . صراع بين السلطة و التنظيمات الاجتماعية ممثلة في القبائل و الطرق.و من الطريف في كتاب الأستاذ المكحلي أنه يبين لنا مختلف الأدوار التي لعبتها هذه التكوينات و التنظيمات في عمليات تأسيس القرى و المدن و خاصة في العملية التاريخية التي رسم ملامحها العلمية ابن خلدون و هي عملية تحويل البداوة إلى حضارة عن طريق ما يسميه علماء اجتماع الريف اليوم بتحويل البداوة إلى "الريفانية" Ruralite ثم إلى مجتمعات فلاحية موسومة بالاستقرار و التحضر.

في هذا السياق حاول الكاتب الإجابة عن عدة أسئلة هامة و جوهرية في سياق النقاش العلمي في التاريخ الاجتماعي المغاربي عامة و الجزائري بشكل خاص - باعتباره نموذجا مثاليا بالمعنى الفيبري - , و منها الكشف عن خلفيات الطرح العقدي للطرق الصوفية {رفضا أو قبولا}, و منها مدى استناد الطريقة على القبيلة كسند اجتماعي " شعبي " لتبرير توسعها,و منها الاستراتيجيات التي تتبعها السلطة المركزية باعتبارها تحتكر السلطة الدينية الرسمية في تعاملها مع انتشار النشاط الطرقي و توسعه خاصة حينما كان يستمد مرجعيته من أقصى المشرق أو أقصى المغرب بما أدى إلى ظهور ما يشبه حركات اجتماعية أو حتى أحزابا ذات لبوس ديني , في ظل تضارب المصالح و تداخل الصلاحيات , و هو ما برز في تحول العديد من الطرق في بلدان المغرب العربي الى حواضن سياسية لمقاومة الاحتلال بل و تحولها إلى خلفية للعديد من الأحزاب المدنية الوطنية لاحقا .

هذه المقاربات لم تستغن عن التعرض إلى أهم التحولات الاجتماعية التي عرفتها الجزائر خلال فترة الدراسة و لذلك اعتمد الكاتب على توظيف مادة معرفية تاريخية متنوعة المصادر , تعود إلى عدة حقول متنوعة في العلوم الإنسانية و الاجتماعية من كتب و رسائل جامعية و مقالات علمية في التاريخ و علم

الاجتماع و الأنتربولوجيا و الحضارة و العلوم الشرعية و الجغرافيا و الاقتصاد, وغير ذلك مما تقتضيه المقاربة متعددة الاختصاصات Approche multidiciplinaire . كما رفد الأستاذ المكحلي ذلك بمتابعة ميدانية للوقائع و الممارسات المادية و اللامادية لانتشار الظواهر المدروسة و بقاياها في المجتمع المحلي المعروف برواياته الشفوية و تراثه الثري , و كان ذلك من خلال جمع المادة من الميدان من خلال مشاركاته الواسعة في الأنشطة الثقافية و العلمية بالمناطق الداخلية و ما يتطلبه من زيارات و مقابلات مثرية للموضوع.

أهم الاستنتاجات :

- تابع الكتاب طرق تحكم الطرق الصوفية و التنظيمات القبلية في الجزائر في "المقاطعات" التي "احتلوها" , تابع ذلك بطريقة طريفة و خاصة في إطار تلميح مقارن بينها و بين أشكال إدارة الإقطاع في الدول الأوروبية للمقاطعات في مرحلة انتشار النظام الإقطاعي. و تبدو المسألة بحاجة إلى مزيد التعمق لاحقا خاصة في المقارنة بما كتبه ماركس في رسائله إلى صديقه انجلز حول الجزائر مؤكدا على مسألة تحكم القبيلة من جهة و على طابع الملكية الجماعية للأرض من جهة ثانية.
- يبين الكاتب مدى أهمية تنبه الدارسين إلى مسألة تقسيم العمل أي تقسيم الأدوار بين السلطة المركزية التي تحتكر النفوذ عن طريق الجباية و بين السلطة المحلية في الدواخل التي تتحكم فيها القبائل و الطرق في تكامل أو تحالف مع نوع من الاستقلال النسبي للجهات في إدارة الشؤون المحلية مقابل توزيع غير عادل للمكافآت و الهدايا و " الاقتطاعات" و عمليات التحويز و الإعفاءات الموزعة حسب اتفاقات ضمنية تحكمها تقاليد علاقة المجموعات المحلية بالسلطة المركزية ممثلة في الأتراك بين تابعة و صديقة و أخرى متمردة و معارضة ثائرة.
- كأني بالكاتب يدعو إلى عدم إهمال الباحثين للعديد من الكتابات رغم الطابع الهاوي و الذاتي فيها لما تحتوي عليه كتابات الهواة حول المحلي من معطيات قد تفيد الباحثين في حقول بحثية ضنينة المراجع. لكننا نعتقد رغم وجاهة ذلك التمشي أننا بحاجة إلى إجراء نقد بيبلوغرافي لتلك المادة بسبب

ما يتسرب إليها في كثير من الأحيان من الضعف بسبب قلة ذات اليد المنهجية و العلمية لدى أصحابها .

- ارتبطت الطرق الدينية في الجزائر بالفكر الإسلامي الصوفي منذ القرن الخامس عشر و سرعان ما تحولت إلى تنظيمات و مؤسسات تنطوي على حراك ثقافي جماهيري جهادي, ليس بالمعنى السلفي النكوصي {بحسب تعبير التيزيني رحمه الله} الذي نجده بدول الخليج اليوم بل إلى جهاد يستند إلى المقاومة الثقافية للغزو الخارجي و الحفاظ على الهوية الثقافية للمنطقة. هذا ما عبر عنه مثقفو المناهضة للاستعمار من المدارس التاريخية و السوسيولوجية من أمثال جاك بيرك في تحليله لفكرة نهاية الاستشراق الاستعماري و فضحه لبعض جوانبه ,أو ما تحدث عنه عالم الاجتماع الفرنسي المعروف بيار بورديو الذي تحدث عن "الاجتثاث le déracinement : " و عن " المقاومة : La résistance" كردة فعل صارخة لذلك التمزيق الاجتماعي و الثقافي الذي انتهجه المستعمر الفرنسي في الجزائر.في هذا السياق بالذات تفسر المرجعية العراقية و الشامية لبعض الطرق في بلاد المغارب. على أن الكاتب لا يحصر المقاومة في المرحلة الاستعمارية الفرنسية مع أواسط القرن19 بل تعود هذه النزعة الى مرحلة تعرض السواحل الى الغارات الاسبانية و قراصنة البحر.
- يتجاوز المؤلف ذاك التصنيف الثنائي ضيق الأفق الذي اعتمدته بعض المدارس و خاصة الانقسامية Segmentarisme {قبائل متمردة و قبائل موالية} بإضافته صنفا آخر يتمثل في القبائل المستقلة التي يتناسى بعض الباحثين أدوارها و وظائفها , كما يرد بالدلائل على المدرسة الكولونيالية و امتداداتها في اعتبار أن بنية القبيلة و نظامها أديا إلى جمود الحراك التاريخي في المنطقة في تجاهل مقصود لعمليات الصراع و الدينامية التي لا تؤكد تاريخيا أن المجتمع القبلي في المنطقة كان يعيد إنتاج ذاته .

إن كتاب الأستاذ مكحلي حول الطريقة و القبيلة يجيء في سياق مرحلة هامة من البحث العلمي الجامعي الرصين في المنطقة , بدأ يغطي مواضيع المجتمع العميق و المهمش أو المتعالى عليه, برؤية مغايرة و مختلفة عن الرؤية التابعة ,تبعيات متعددة, تصل حد الوقوع أحيانا كثيرة

في الأدلجة . لقد حان الوقت للقول أن الإنتاج العلمي من ضمن المدرسة المغاربية الوطنية بدأ يبين عن تراكم مفيد و تأسيس جديد لتوجه يقوده الواقع و لا تقوده الأفكار المسقطة التي كثيرا ما كانت و لا تزال تتسرب عبر النظريات و المفاهيم المسقطة. و لعلنا بهذا التوجه سنتمكن من التوصل مع المكحلي إلى أطروحات علمية عميقة و رصينة حول الواقع المجتمعي في تاريخيته الحقيقية.

لقد تمكن الأستاذ مكحلي من لملمة أطراف موضوع شائك و صعب فحلل أبعاده و اكتسح خباياه مستعملا شتى المعارف الإنسانية المتوفرة لمقاربة ظاهرتي القبيلة و الطريقة. و مما زاد من جدية هذا العمل ثراء مرجعيته النظرية و الميدانية و هو ما تشهد به القائمة الببلوغرافية و الملاحق المفيدة و الطريفة التي يتبين لنا أنها كانت نتيجة بحث ميداني معمق و صلة للباحث بمجال بحثه وثيقة , فضلا عن الأسلوب المبسط و الهادف في التأليف و في لغة الكتابة. فجازاه الله عنا كل خير لما بذله من جهد , معتقدين أن هذا الكتاب سوف يكون إضافة علمية معتبرة لحقل العلوم التاريخية و السوسيولوجية ليس بالجزائر فقط بل بكل أقطارنا المغاربية و للمكتبة العربية عامة .

مع تقديرنا لثقته الغالية في شخصنا المتواضع لتقديم العمل والمساهمة في إبراز جوانبه المختلفة , فهي فرصة لتقديم تقديرنا له و تهنئته.

فله منا كل الشكر و للقراء الكرام.

اد. محمد نجيب بوطالب